تولستوى وآنا كارنينا

بقلم : روزماري إدموندز
ترجمة : ماهر شفيق فريد

ذات يوم من شهر مارس ١٨٧٣ التقط تولستوى كتابا تركه احد اطفاله ، وشرع يقرأ منه لزوجته بصوت مرتفع (وصل الصيوف الى المنزل الريفى) فهكذا كان مطلع حكاية بوشكين الشعرية . وعلق تولستوى قائلا : (هكذا ينبغى أن يبدأ المرء . ان بوشكين يضع قراءه رأسا فى وسط الحديث . اما سائر الكتاب فيصفون الصيوف والحجرات بينما يشرع بوشكين فى العمل فورا) .

وفى تلك الأمسية كتب تولستوى فى غرفة مكتبه الصفحات الاولى من (آنا كارنين) التى كان موضوعها ماثلا فى ذهنه منذ التحقيق الذى كان محوره شابة القت بنفسها تحت عجلات قطار قرب المحطة التى لاتبعد عن منزل تولستوى الا بأميال قليلة .

كان تولستوى حينذاك فى الرابعة والاربعين ، فى ذروة نضجه . لم يختل بعد التوافق بين العقل والاخلاق فيه . وكان قد انتهى قبل ذلك بخمس سنوات من (الحرب والسلام) وما لبث (آنا كارنين) — وهى الأقرب الى الكمال — ان بلغت بالرواية النفسية فى القرن التاسع عشر نقطة ارتفاع المياه .

اننا نجد فى (آنا كارنين) ، بانوراما واسعة للحياة فى روسيا وللانسانية على وجه العموم ، ورغم ذلك لا يضطرب استمرار الحديث ابدا وتظل الشخصيات الرئيسية ماثلة فى المقدمة . ان تولستوى لا يومىء الى اى عقدة اخلاقية . فهو يدع تحول اشكال المطار يجسد معنى الكلمات المتأملة التى تلى العنوان . ونحن لا نحكم بشىء وانما نراقب . ليس امامنا غير حل واحد : الرحمة والحب . ويقول دوستوفيسكى (وحد الشر قبل وجود البشر ، وقد تدور البشر روعة الحياة ، يقترفون الجرائم ويموتون) . فآنا تطيع قوة الحياة ولكن لابد لها من أن تموت وليس لانسان ان يقيم سعادته على آلام انسان آخر ، بينما تضحى آنا بروحها وابنها . وفى الفترة القصيرة التى ترقد فيها مهددة بالموت ، تجد أن الابطال الثلاثة — آنا نفسها وزوجها وعشيقها — يعدون بسطاء صالحين . على انه ما ان تسترد قواها حتى يعى الثلاثة عجزهم فى الصراع المقبل (حتى يضطروا الى فعل الشر الذى يعده العالم الوضع

الطبيعي) ان وجودها العادي ـ كزوجة لكارنين ـ قد اظلم وعيهـا الروحي ، فراحا بلا مثل اعلى حقيقي تتعلق به ، وقد راح جنون شهوتها يلتهم دمها الشجاع شيئا فشيئا . ويجعل قلبها اذ يحد ان حياتها لم يعد لها هدف غير ادخال السرور على نفس عشيقها ثم تعذيبها الغيرة وتأتي في رعب ـ لغرورها ـ ان تنجب اطفالا ولابد لها من ان تتناول المورفين اثناء الليل لتسكن من عذاباتها الى ان يلقى عذابها الداخل المرير الى الموت تحت عجلات عربة البضائع في القطار .

وان جانب مأساة آنا تتطور قصة أخرى هي ـ من عدة نواح ـ تاريخ تولستوي وزوجته . ونجد ان نواحي الشبه بين القصتين لاتخفى . فغرام كيتي وليفين ليس الا نقلا لذكريات تولستوي العائلية مثلما نجد ان وفاة شقيق تولستوي تلك الوفاة المأسوية ـ ومنظر ميلاد طفل كيتي مستوحى مباشرة من رد الفعل العاطفي لتولستوي ازاء ميلاد طفله الاول . ويخلع تولستوي على ليفين قوته البدنية العظيمة وحبه للتربة والفلاحين والتغيرات السريعة التي تطرأ على حالته النفسية واندفاعه في تنفيذ افكاره الى اقصى الحدود وقدرته على ان (يدمر ويعيد خلق العوالم) كما انه كانت لتولستوي نفسه احباطاتها لوقتا محور تدور منزله في ياسنايا بوليانا الى ان تزوج ! ثم هناك ذلك الشبه الوثيق بين طلب ليفين يد كيتي وطلب تولستوي يد زوجته اذ خط كلا الرجلين بقطعة طباشير على بطاقة مائدة الحروف الاولى من الكلمات التي كانا اشد عصبية من ان ينطقوها بها . وتولستوي ـ مثل ليفين ـ قد دفعته امانته الصارمة الى ان يضع مفكرته الخاصة بين يدي خطيبته حتى تعرف ماضيه (وزوجة تولستوي ـ مثل كيتي ـ قد صدمت لذلك واوديت ايداء قاسيا) وليفين ـ مثل تولستوي ـ يهاجم المجتمع المعاصر والنفاق والتحرر الرائج ايامهما وتدين عرف الخلوسي . وحملته تنصب ايضا على العالم (الذي يشتت كل الاحاسيس الصادقة ويسحق لاعالة حساسية العقل السليمة) وذلك هو العنصر الثالث في الرواية .

ان ليفين يتعذب من جراء الصراع الناشب في داخله بين العقل والقلب

ويصور تولستوي ـ من خلال قلق ليفين الفلسفي ـ المأساة الخفية لجيل احس بأنه خرج من الحياة تتيجة لخوفه من الموت ذلك الخوف الذي جعل حياته كلها بلا معنى

(وليفين الذي كان انا وروحا سعيدا يتمتع بصحة كاملة كثيرا ما كان يدعو من الانتحار حتى ليتعين عليه ان يخفي حبلا والا شنق نفسه . ولم يكن يخرج ومعه بندقية مخافة ان يرمي نفسه بالرصاص) .

وكما كتب تولستوي الى فت (مني تحقق الانسان من ان الموت هو نهاية كل شيء ، لم يعد ماهو اسوأ من الحياة) (وثمة نقطة صغيرة ولكنها ذات دلالة . فمن بين المائتي وتسعة وثلاثين فصلا التي تتألف منها آنا كارنين لانجد الا فصلا واحدا له عنوان . وهذا العنوان هو (الموت) . ويجد ليفين الخلاص من خلال حكمة فلاح امي يخبره بأن الانسان لابد وان يعيش لا من أجل حاجاته وانما من أجل الله ومن أجل

روحه فيتحقق ليفين عند ذاك من ان العمل لم يعلمه شيئا وان كل ما يعرفه قد اتاه وانجلى له عن طريق القلب والملاحظة الدقيقة التي ترد الآن ليست الا صدى للعملية العقلية التي تمت وفقها في ذهن تولستوي (الذي بادر بالاعتراف « عرفت ايضا ان معيار الخير والشر لم يكن ما يقوله الناس او يعملونه وانه ليس التقدم وانما هو نفسي وفقط) . وليس السلام الذي حظي به ليفين اخيرا مقتنعا تمام الاقناع . فهو حالة مشهودة اكثر منها حالة تحققت فعلا حتى ليشعر المرء بانه ليس بعيدا عن الارتداد الى الشك . وكما كان الشأن مع تولستوي نفسه لا يستمر محو العقل طويلا . فكلاهما سيطالب بالسعادة مكافأة له على ترك العالم . انهما يتساءلان اكثر مما يفكر . يقول دوستويفسكي (ان ذهن ليفين معنى في القلق وسيدمر ايمانه مرة أخرى .. سيمزق نفسه على مسمار عقلي من صنعه) . وقد لاحظ ملاح من ملاحي تولستوي اذ وقف قرب قبر سيده بعد أن وارته الثرى (ان الافراط في مطالعة الكتب يفسد بك سواء السبيل في اغلب الاحيان) . وليفين ـ كتولستوي ـ لن يبقى طويلا قرين العين وانما سيحاول تغيير كل شيء وترتيبه على نحو افضل بطريقته الخاصة .

ان ليفين انعكاس صادق لتولستوي نفسه . ونجد ان تولستوي يعبر ـ من خلال شخصية ليفين ـ عن معتقداته وآرائه بل ويدسها احيانا في فم ليفين دسا . وقد اعتادت الكونتيسه تولستوي ان تقول « ليوفوتشكا انت ليفين + الموهبة وليفين شخص لايطاق !)

اما كارنين ، زوج آنا ، فهو من بعض النواحي نقيض ليفين انه يمثل مساكن المدينة البيروقراطي المتناهي الذي يحيى تحت قناع من التهكم ذكاء عقل صديق ـ وما زال يحتفظ بكرمه عن خوف ـ انه ـ بكلمات رومان رولان ـ « يخشى أن يستمع الى صوت قلبه وهو محق في هذه الخشية لانه عندما يستسلم له ينتهي بالارتماء في حالة من التصوف ملؤها الهراء » .

ثم هناك شقيق آنا ستيفا . وهو مرح لايحمل مسئولية . تحبه اشتماته الوجود الى كل انسان يلتقي به . وهناك حشد من الشخصيات الاخرى صورت جميعا بنفس الصدق لان تولستوي يتناولها تناولا تحليليا (واستحالته لاتجدله) . وهو اقل اهتماما ، واقل اهتماما بكثير ، مما تفعله شخصياته .

والدافع هو كل ما يهمه . ويشكل أسلوبه من اندفاعه المشوق الى نقل السجل النفسي الذي يكون أحيانا كالحياة التي يسجلها ـ ساذجا مكدورا وان كان ينبض بالحيوية دائما ابدا .

ظهرت (آنا كارنين) على اجزاء في مجلة شهرية عامة ، حتى القسم النهائي الذي رفض ، لان الآراء التي يعبر عنها لم تكن مما يوافق آراء محرري المجلة . ونشرت الرواية كلها منفصلة في شكل كتاب عام ١٨٧٨ أي بعد اتمامها بعام .